الخاتمة

القيمة الفكرية «للظلال»

إن قيمة «لظلال» تتجلى في أنه موسوعة فكرية حفلت بشتى فنون المعارف ، تبدأ بالتفسير وما يتعلق به من قريب أو بعيد من أسباب النزول والقراءات والفقه والتاريخ مرورا بدراسات في لنفس والمجتمع والفلسفة والتربية وعالم الغيب وآفاق الكون وفقه الحركة إلى الحديث عن قضايا المجتمع الإسلامي والمجتمع الجاهلي والدعوة إلى استئناف الحياة الإسلامية من جديد لمواجهة مشاكل الساعة بجد ووضع الحلول لها ومواجهة الجاهلية المتسلطة في الأرض ، تمهيدا لقيام مجتمع إسلامي مقابل قيام مجتمع جاهلي حتى يكون هناك صراع بين الحق والباطل لينتصر الحق في النهاية .

ثم عالج «الظلال» الإعجاز البياني معالجة طريفة كشفت عن تفرد القرآن الكريم في هذا المجال ، وبسط الحديث عن إعجازه الفني في عرض لسور والمضامين ، وفي عرض قصص الأنبياء .

ومما يستدعي النظر في هذا التفسير أنه كان له مواقف من قضايا ، وعلى رأسها موقفه من قضية الإسرائيليات ، وقد أرجأت الحديث عنها في الخاتمة لنتحدث عنها ببعض التفصيل ، وقد سلف الإلماع إلى ذلك .

ليس من شك في أن موجة الإسرائيليات قد بدأ ظهورها في مجتمع المسلمين بدخول مسلمة أهل الكتاب يعني بعد أن بدأ اليهود يدخلون الإسلام كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه وغيرهم ، وقيامهم بتحديث الناس والإجابة عما يقدمون لهم من أسئلة ، وقد كان موقف الصحابة من ذلك أنهم كانوا يصدقونهم فيما يتفق وشريعتهم ويكذبونهم فيما لا يتفق معها ، ويتوقفون فيما يحتمل

الصدق والكذب .

وقد أدت الإسرائيليات إلى ترويج الكثير من الأساطير والخرافات فراجت سوقها في كتب التفسير والحديث والوعظ والتصوف وتلقاها البعض بالقبول ، فأصبح لذلك أثر سيء على الأمة ، إذ حجب حقائق الإسلام عن أعين الناس وبث الشكوك في المسلمات العقدية ، لأجل ذلك نبه الأئمة الأعلام على هذه الأساطير وأخطارها ، فقسم شيخ الإسلام ابن تيمية الإسرائيليات إلى ثلاثة أقسام : صحيح وموضوع ومسكوت عنه ، وفي ذلك يقول :

« ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد [١] فإنها على ثلاثة أقسام **أحدها** : ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح . **والثاني** : ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه ، **والثالث** : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ، وتجوز حكايته لما تقدم ، وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني » .

وقد وقف «الظلال» من هذا الركام من الإسرائيليات موقفا حازما يتجلى في مظهرين :

أ ـ ضربها صفحا عنها البتة دون إشارة ، كما لو أنها غير موجودة .

ب ـ تلميحه إلى ما شابه الآية الكريمة من شروح نستمد أصولها من الإسرائيليات ، وقد يصرح أثناء ذلك ببعض الأساطير التي قيلت في الموضوع الذي يدرسه ، من ذلك تلميحه إلى ما قيل في شأن هاروت وماروت [٢] ، وما قيل عن إبليس واسمه وهكذا [٣] .

---

(١) انظر كتابه مقدمة في أصول التفسير ، ص ٤٢ ، ط ١٩٨٠ .

(٢) المجلد ١ ، ص ١٢٩ .

(٣) المجلد ٥ ، ص ٣٩١ وإذا شئت الوقوف على تصريحه بالاستنكار الإسرائيليات ، انظر المجلد ٧ ، ص٩٩ ، ١٠٠ .

على هذا الدرب مضى سيد قطب يتحرى في تفسيره الروايات الصحيحة ويتجنب الأخبار المريبة التي مصدرها الإسرائيليات مات وسعه التجنب وامتد إليه علمه البشري .

بجانب هذا الموقف للظلال من الإسرائيليات فقد كانت له مواقف أخرى من قضايا أخرى ؛ كقضية التفسير العلمي للقرآن الكريم ، وقضية فقه الأوراق وفقه الحركة ، وتقسيم الفقه إلى عبادات ومعاملات ، والاستشراق ، والمجتمع الإسلامي والجاهلي ، مع ما زخر به «الظلال» من حشد كبير من المصادر والمراجع في شتى الفنون ، مما يجعله دليلا في مختلف المعارف ، وذلك يؤكد لنا ، زيادة على ما سبق ، قيمة الظلال الفكرية .

أما ما راج من شبهات حوله تتمثل في الزعم بأنه ينزع نزعة الاعتزال التي شابت بعض مباحثه حيث تحدث عن سحر النبي ﷺ وذلك في تفسيره سورة «الفلق» [(١)] ورفضه ~ خبر سحره لكونه خبر آحاد وأنه غير حجة في مجال العقيدة ، وقد ذهب سيد إلى ذلك خوفا من أن تمس العصمة النبوية وتمس به العقيدة في الصميم ، واستنادا إلى أن هذا الرأي في خبر الآحاد مختلف فيه في مسائل العقيدة [(٢)] ، فسيد إذا ليس رأيه بدعا في هذا الأمر فقد سبقه إلى ذلك من سبقه ، مع ذلك فلسنا نرى ذلك قطعا ، فخبر لآحاد حجة في الأحكام الشرعية والعقدية معا ، والتفريق في الاحتجاج به بين هذا وذاك غريب على الحس الإسلامي وهناك أكثر من دليل على ذلك منه قوله تعالى : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر:٧] ، ولا يخفى أن «ما» من ألفاظ العموم عند الأصوليين فهي تشمل كل ما جاء به الرسول ﷺ من أحكام

---

(١) المجلد ٨ ، ص ٧٠٧ وما بعدها .

(٢) انظر : الغزالي «محمد» المستصفى ، ج ١ ، ص ١٤٥ وما بعدها ، والكلوذاني الحنبلي «محفوظ» ، التهميد في أصول الفقه ج ٣ ، ص ٣٥ وما بعدها .

دون تمييز .

هذا بجانب أن واقعة سحر النبي ﷺ رواها الشيخان في صحيحيهما ، فالبخاري في كتاب الطب ، ومسلم في باب السحر ، وقبلتها الأمة بالقبول فهو خبر الواحد ، غير أنه وقع الإجماع على وقوعه فأفاد بذلك اليقين .

ثم ما كان يحذره سيد لم يحدث لكون الواقعة لم تمس العصمة ، ولم تتعدد عوارض جسدية ولا تتعلق بالملكة العقلية وقواها ، وبهذا تبطل فرية تأثر «الظلال» بالفكر الاعتزالي مادام الحافز إلى هذا الرأي حافز الغيرة ، ومادام الحافز إلى هذا الرأي حافز الغيرة ، ومادام مصدره غير اعتزالي .

وأما ما أثير من شبهات حول تأثر «الظلال» بنظرية «وحدة الوجود» التي روج لها أصحاب الظلال من الصوفية أمثال ابن العربي وسواه من الخرافيين والمشعوذين من ذوي الجرأة والجسارة على شرع الله فليس لهو واقع ملموس ، وإنما هي آراء أطلقت بحافز من فهم شخصي يتعامل مع نصوص سيد قطب البيانية المتميزة في بعض سماتها بالدلالة الظنية مما يجعلها قابلة لوجوه من التأويل وأصناف من التفسير .

ومنذ أعوام أثار القضية شيخنا العلامة المحدث الفقادة محمد ناصر الدين الألباني ـ أطال الله بقاءه ـ في استجواب أجرته معه مجلة «المجتمع» الكويتية [١] وكان تركيزه على تفسير سيد قطب سورة «الحديد» [٢] وسورة «الإخلاص» [٣] .

وقد حررت ردود في هذا الشأن تولت المجلة المذكورة نشرها [٤] .

والرأي عندي ـ بإيجاز لأن الموضوع يتشقق ويطول ـ أن المنحى الأدبي في

---

(١) العدد ٥٢٠ ، السنة ١١ ، ص ٢٣ ـ ١١ جمادى الأولى ١٤٠١ ، ١٧ مارس ١٩٨١ .

(٢) المجلد ٧ ، ص ٧١٠ ، وما بعدها .

(٣) المجلد ٨ ، ص ٧٠٢ ، وما بعدها .

(٤) تبتدئ من عدد ٥٢٠ .

«الظلال» خاصة في الموضوعات الدقيقة في التوحيد لها إسهام كبير في إشاعة بعض اللبس في عبارات سيد ، فمن يقرأ قوله في سورة الحديد : «ويتلفت القلب البشري فلا يجد كينونة شيء إلا الله »يتوهم أنه متأثر بنظرية «وحدة الوجود» لكونه أبطل وجود المخلوقات وأثبت وجود الخالق ، على حين العبارة في الحقيقة تثبت وجود الله تعالى ووجود المخلوقات ذلك أن القلب البشري حين يلتفت إلى هذا الكون فلا يرى شيئا يستحق البقاء إلا الله تعالى ، ويشرح هذا شرحا أوضح في قوله : «كل شيء وهم ذاهب حيث لا يكون ولا يبقى إلا الله المنفرد بكل مقومات الكينونة والبقاء» [1] وهو ما يفسره قوله تعالى : ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٦، ٢٧] .

ولكأن سيدا أحس ما يمكن أن يؤول إليه كلامه فأشار إلى شطحات الصوفية المشؤومة في هذا الشأن فقال : «ولقد أخذ المتصوفة بهذه الحقيقة الأساسية الكبرى وهاموا بها وفيها وسلكوا إليها مسالك شتى بعضهم قال : إنه يرى الله في كل شيء في الوجود وبعضهم قال : إنه رأى الله من وراء كل شيء في الوجود وبعضهم قال : إنه رأى الله فلم ير شيئا غيره في الوجود ، وكلها أقوال تشير إلى الحقيقة إذا تجاوزنا عن ظاهر الألفاظ القاصرة في هذا المجال» [2] .

والحقيقة التي لا يمكن أن يرتقي إليها ريب أن مثل هذه القضايا التي تقتضي إصدار الحكم يجب أن تدرس في ضوء أجواء الظلال جوا جوا ، وفي ضوء كتابات أخرى لصاحبه ، ذلك أن «الظلال» من الألف إلى الياء دعوة إلى فهم الربوبية والعبودية على نحو ما نجده عند سيد نفسه في كتابه الجيد الفريد «خصائص التصور الإسلامي ومقوماته» .

---

(١) المجلد ٧ ، ص ٧١٨ .

(٢) المجلد ٧ ، ص ٧١٨ .

وأحب أن اختم هذا الموضوع بشهادة شيخنا الألباني نفسه لسيد قطب بالفهم الجيد لمفهوم التوحيد حين جعل «لا إله إلا الله منهج حياة» [١] فقال في استجواب أجرته معه جريدة «النور» الإسلامية :

س ـ ما رأيكم في فكر سيد قطب ~ على ضوء الكتاب والسنة؟

ج ـ سيد قطب ~ صاحب قلم سيال ، ومن أبرز كتاب الإخوان ومفكريهم انتبه إلى أمر مهم جدًّا وهو التوحيد ، مثل الحاكمية لله تعالى ، وبعض عناوينه من أعجب ما يصدر من إنسان فاهم لأهمية التوحيد وهو «لا إله إلا الله منهج حياة» كما في كتاب المعالم ، وهذا يغني عن كل تفصيل [٢] .

فالظلال ، في الأخير ، قمة بين التفاسير عطاء ، فمهما حاول الطاعنون أن يطعنوا بحق أو بغير حق على نحو ما فعل الأستاذ عبد الله بن محمد الدويس في كتابه «المورد الزلال في التنبيه على أخطاء تفسير الظلال» [٣] فإنه خليق بالرد ، لأنه في بعض المباحث لا يلتزم المنهج العلمي في تقصي الأخطاء ، ولكون أن المنهج العلمي يفرض عليه ، فيما يفرض ، قراءة التفسير قراءة استيعاب دقيق حتى لا يفضي الأمر إلى بتر الكلام من النصوص العامة أو إلى نقد ما يحتمل التأويل في كلام المؤلف .

مع ذلك فلسنا ننزه سيدا عن المزالق فهو ككل البشر يخطئ ويصيب ولو كان عندنا في هذه الدراسة سعة للقول لنبهنا على ما وقع فيه من مخالفات نتيجة قصور في تصور قضية ما ، أو جهل بنص ما من نصوص شرعية ، أو نسبة رواية حديث لمن لم

---

(١) فصل من كتابه النفيس الذي قدم من أجله رأسه ، معالم في الطريق ، ص ١١١ وما بعدها .

(٢) انظر : عدد ٢٤ ، السنة ٣ ص ٨ ـ ١٣٩٦ ـ ١٩٧٦ ولقد حضرت هذا الاستجواب وسمعت الشيخ أطال الله بقاءه يقرر هذه الحقيقة ، وذلك بدار السيد عبد السلام الأزمي الذي أقام له مأدبة بالمناسبة عام ١٣٩٦ .

(٣) الناشر مكتبة دار لاعليان .

يروه كحديث «أن غيلان بن سلمة أسلم وتحته عشر نسوة ... إلخ» [١] وهكذا .

أقول مهما حاول الطاعنون أن يطعنوا فهو صخرة تنكسر عليها جميع الموجات ، ثم ترتد عنها أشتاتا تتطاير هنا وهناك ، وتبقى الصخرة تستمد القوة من الحق لتصل بين الله والناس .

موازنة بين «الظلال» وغيره :

إن أمة الإسلام ـ والحمد لله ـ تملك ثروة ضخمة في مجال التفسير من عهد قديم إلى مصرنا الحديث مما لا تتوافر عليه أمة من أمم الأرض قاطبة ، وفي هذه الثروة النفيسة ألوان من التفسير : فهناك التفسير بالمأثور والتفسير بالمأثور والمعقول ، والتفسير الذي يعنى بعلم معين كما مر بنا سالفا ، وكل تفسير من هذه الأنواع له منهجه في البحث والبيان والتفسير .

فما هو موقع «الظلال» ـ في رأي ـ منارة خضراء بين جميع مصنفات التفسير بدون مبالغة ، لأنه يجمع محاسن لم يجمعها غيره في السابق واللاحق ، ذلك أنه ترسم منهجا للسلف في نبذ الإسرائيليات والجمع بين المأثور والمعقول وتوجيه الأقوال وترجيح الآراء مع التبصر في استعمال العقل وجعل الوحي الحكم في كل شيء ؛ لأنه المصدر الأول والأخير ، لكونه صادرا عن الله تعالى المنزه عن النقص على حين العقل لا يستطيع أن يبث في أمور هي فوق إدراكه ، لكونه محدودا بالزمان والمكان ، وهو بهذا ينعى على مدرسة محمد عبده إسرافها في استعمال العقل إلى الحد الذي يجعله المتحكم في كل شيء ، مما يحفزها إلى تأويل الوحي لأجل إرضائه ، والسقوط فيما يسخط الشرح الحكيم .

هذا مع ما تميز به «الظلال» من احتفال بالوحدة العضوية في السورة ، وكشف

---

(١) انظر المجلد ٢ ، ص ٢٤٢ .

عن حقائق فنية تبرز إعجاز الكتاب المبين في مجال البيان ، وكشف كذلك عن مضامين لم تكن معروفة لدى المفسرين القدامى والمحدثين مثل علاقة الإنسان بالكون والحياة ومنهج العمل الإسلامي وغير ذلك مما كان لنا معه وقفات تطول أحيانا ونقصر أخرى في الفصول السابقة .

بقي أمر آخر يتميز به «الظلال» هو أنه كتاب تفسير ذو وشاح جميل أخاذ يغري الدارس بأن يدرسه على أنه أثر أدبي فني نطلب من الله تعالى أن يقيض من يطلع بهذه الدراسة فإنها دراسة لطيفة شائقة .

فبالموازنة بين «الظلال» وبين غيره نلحظ الفروق واضحة ، ونخلص إلى نتيجة حتمية هي أن «الظلال» منارة خضراء تزرع نور القرآن عبر امتداد الآفاق الواسعة ، وأغوار النفس المطمئنة الراضية والنفس الممزقة الشاردة ، وعبر ما تزخر به الحقائق الكونية من آيات تحكم علاقة المخلوقات من فرد وجماعة وحيوان ونبات وجماد كاشفا في كل ذلك معجزات الرحمن تترى منسابة في بهاء فذ ، متهادية مضيئة في جلال معجز ، يبوح بسره القرآن الكريم في قوله تعالى في إيجار إعجازي باهر : ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ [الملك:٣] .

بعد هذا الامتداد الوسيع في ارتياد جواء «الظلال» الوريفة جوا جوا وأفقا أفقا ، لعله بذلك يكون قد حقق الانتشاء الروحي والعلمي معا وتلك هي أحلى بغية ، لم يبق لنا إلا أن نضرع إلى الله تعالى صراحة العبد الذليل بأن يختم لنا بالإيمان لنتشمم عطر الحسنى ، ونتبوأ العز في المقر الأسنى ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

*****

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

السنة المطهرة .

الألباني «محمد ناصر الدين» : حجاب المرأة المسلمة في الكتاب والسنة ـ ط٣ منشورات المكتب الإسلامي ببيروت ـ ١٣٨٩ .

ابن بشكوال «أبو القاسم» : الصلة القسم الأول ـ مجريط ١٨٨٢م .

أبهي «محمد» : الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي ـ ط ٥ ـ دار الفكر ـ بيروت .

ابن الجزري «محمد بن يوسف» : البحير المحيط ـ ط١ ـ مطبعة السعادة ـ مصر ١٣٢٨هـ .

الخالدي «صلاح» : ـ سيد قطب الشهيد الحي ـ ط١ ـ مكتبة الأقصى ـ عمان الأردن ـ ١٤٠١ ـ ١٩٨١

ـ سيد قطب ونظرية التصوير الفني ـ دار القرآن ـ ط١ ـ عمان الأردن ـ ١٤٠٣ ـ ١٩٨٢

الخباص «عبج الله» ـ سيد قطب الأديب الناقد ـ مكتبة المنار ـ ط١ ـ الأردن ١٩٨٣ .

الزمخشري «محمود» : ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون التأويل ـ دار الفكر ـ بيروت «بدون تاريخ» .

ـ أساس البلاغة ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٣٧٥ ـ ١٩٦٥ .

الزوزني «الحسين بن عبد الله» : شرح المعلقات السبح ـ منشورات التجارية

المتحدة ـ دار البيان ـ بيروت ط٣ ـ ١٩٧٣ .

أبو زهرة «محمد» : محاضرات في النصرانية ـ دار الفكر ـ ط٤ ـ علم الأصول ط١ ـ عيسى البابي الحلبي ـ مصر ١٣٥٦ ـ ١٩٣٧ .

العقاد «عباس محمود» : الفلسفة القرآنية ـ سلسلة كتاب الهلال .

ابن عقيل «عبد الله» : شرح الألفية ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ط٩ ـ المكتبة التجارية ـ مصر ـ ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ .

الغزالي «محمد» : المستصفى من علم الأصول ـ ط١ ـ المطبعة الأميرية ـ مصر ـ ١٣٢٢ .

الفيروز آبادي «محمد» : القاموس المحيط ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصطر «بدون تاريخ» .

القرطبي «محمد» : الجامع لأحكام القرآن ج٢ صححه البردوني ـ مطبعة دار الكتب المصرية ـ ١٣٧٣ ـ ١٩٥٤ .

قطب «سيد» : ـ في ظلال القرآن ـ ٨ مجلدات ـ ٩٦ .

التصوير الفني في القرآن ـ دار المعارف مصر ـ ١٩٥٩ .

الإسلام ومشكلات الحضارة ـ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ـ ١٩٦٢ .

خصائص التصور الإسلامي ومقوماته ـ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي ـ ١٩٦٢ .

معالم في الطريق ـ ط٢ ـ مطبعة الرسالة ـ سلسلة الجهاد الأكبر ـ ديسمبر ١٩٦٦ .

ابن كثير «اسماعيل» : ـ تفسير القرآن العظيم ـ دار الفكر «بدون تاريخ» .

شمائل الرسول ﷺ تحقيق مصطفى عبد الواحد ـ القاهرة ـ ١٣٨٦ ـ ١٩٦٧ .

الكلوذاني «محفوظ» : التمهيد في أصول الفقه : دراسة وتحقيق د . محمد ابن علي بن إبراهيم ـ ط١ دار المدني ـ جدة ١٤٠٦ ـ ١٩٨٥ .

ابن هشام «عبد الله» : أوضح المالك إلى ألفية ابن مالك ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ ط٤ ـ المكتبة التجارية الكبرى ـ مصر ـ ١٣٧٥ ـ ١٩٥٦ .

النسفي «عبد الله» : مدارك التنزيل وحقائق التأويل ـ دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي «بدون تاريخ» .

وافي «عبد الواحد الدكتور» : الأسفار المقدسة في الأديان السابقة للإسلام ـ ط١ ـ ١٣٨٤ ـ ١٩٦٤ .

مجلات وجرائد :

أ ـ مجلات :

آخر ساعة عدد ٢٢٢٢٩ ـ ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ .

الإذاعة والتلفزيون عدد ٢٢٠٩ ـ ١٣٩٧ ـ ١٩٧٧ .

النهضة الكويتية عدد ٣١٠ ـ ١٩٧٧ .

المجتمع الكويتي عدد ٥٢٠ السنة ١١ ـ ١١ جمادى «١» ١٤٠١ ١٧ مارس ١٩٨١ .

ب ـ الجرائد :

الأخبار المصرية عدد ٨٠٣٧ ـ ١١ ربيع الآخر ـ ١٣٩٨ ـ ٢٠ مارس ١٩٧٨ .

الحسنى المغربية «كانت تصدر عن وزارة الأوقاف» عدد ١٩ السنة١ ١٣٨٢ ـ ١٩٦٢ .

النور الإسلامية المغربية عدد ٢٤ ـ السنة ٣ ص ٨ ـ ١٣٩٨ ـ ١٩٧٨ .

*****